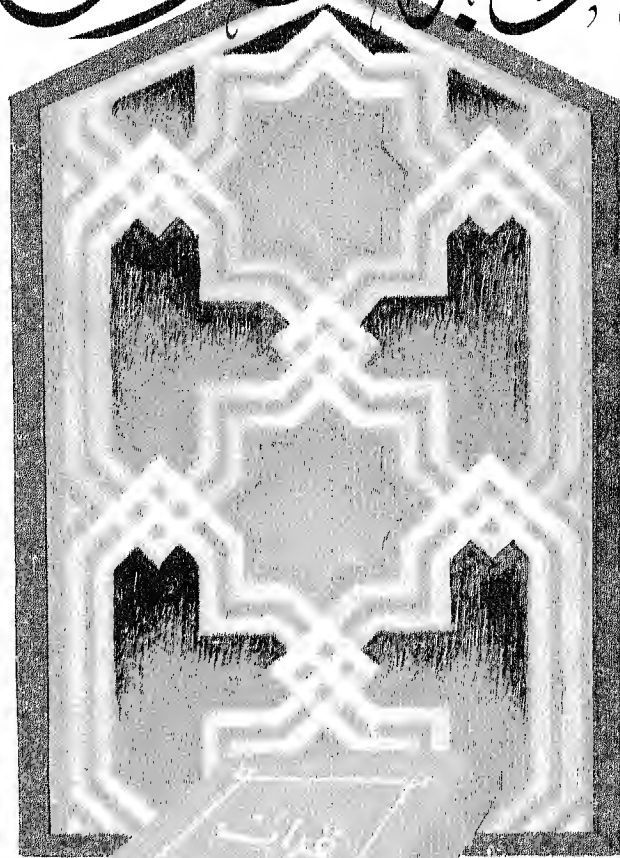


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ صَبَّحَ بِهَا
عَلَيْهِ السَّلَامُ

٦

التَّوْبَةُ الصَّوَرُ



أَبُو بَكْرٍ
مَجْلَى فَخْرِي الشَّيْخَانِي

مَنْ صَبَّحَ بِهَا
طَبْعًا
ت - ٢٢١٥٨٧
مَدِينَةُ رَشِيدِيَّة

قَالَ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا

التَّوْبَةُ النَّصُوحُ

وَجُوبُهَا. عِلَامَاتُهَا. أَقْسَامُهَا. شُرُوطُهَا. فَوَائِدُهَا

أَبُو مَرْيَمَ
مَجْدِي بْنُ فَتْحَى السَّيِّدِ

فَكَتَبَهَا الصَّحَابَةُ بِرُطَبَا

كتاب قد حوى درراً بعين الحسن ملحوظة
لهذا قلت تنبيهاً
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

في غرة شوال سنة ١٤٠٦ هـ

الناشر

مكتبة الصحابة

شارع الجنبية الغربى - خلف المعهد الأزهرى
طنطا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وتفوز بالفضل الكبير الخالد	إن شئت أن تحظى بجنة ربنا
تجد الإعانة من إله ماجد	فانهض لفعل الخير واطرق بابه
جمع الفضائل جمع فذ ناقد	واعكف على هذا الكتاب فإنه
فيما يقرب من رضاء الواحد	يهدى إليك كلام أفضل مرسل
وادمع لكاتبه وكل مساعد	فأدم قراءته بقلب خالص

مَقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله ..

نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .
وأن محمداً عبده ورسوله ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون »
« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »
« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها
وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله
كان عليكم رقيباً » ..
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم
ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » ..

ثم .. أما بعد ..

فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل ، وخير الهدى هدى محمد
صلى الله عليه وسلم — وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة
ضلالة .

وبعد ..

أخي المسلم اختي المسلمة :

اعلموا جميعاً يا عباد الله أن التوبة من الذنوب ، بالرجوع إلى ستار
العيوب ، وعلام الغيوب ، واجبة على الفور والدوام .

إن التوبة هي طريق السالكين إلى ربهم ، وزاد المؤمنين في آخرتهم ،
ورأس مال الفائزين في دنياهم وآخرتهم . فما نجا من نجا في يوم القيامة ،
يوم الحسرة والندامة إلا بالتوبة النصوح ، التي فيها العزم على الإخلاص
لله وحده ؛ إنها — هي وحدها — السبيل لتحقيق ما يرضى الله عنا ، والابتعاد
عما يغضبه منا ، إنها تمحو الذنوب . وتستتر العيوب ، إنها تهدى النفس
الإنسانية ، والقلوب البشرية .

ولذا كان السلف الصالح مع ما هم عليه من عمل وعلم ، وزهد وورع
كانوا قليلًا ما ينامون ، وكانوا بالأسحار يستغفرون .

وما كان ذلك منهم إلا لعلمهم أنهم مهما فعلوا من طاعات كثيرة فلا بد
فيها من التقصير حتى أن الواحد منهم كان يقول :
« استغفارنا يحتاج إلى استغفار » ..

ويقول الآخر :

« طوبى لمن صحت له خطوة لا يريد بها إلا وجه الله » .

هكذا كانوا ، ولكن خلف من بعدهم خلف ساروا وراء الشهوات .
وتهالكوا على الفانيات ، وزهدوا في الباقيات الصالحات فقاموا بالمعاصي في
الليل والنهار ، في السر والعلانية ، ولا يستحيون من العلى القهار ، وما فطنوا
إلى أنه هو المتكبر الجبار .

فخسروا خسراناً مبيناً ، وسيندمون ندماً عظيماً ، إلا إذا عادوا إلى
الحليم الغفار . بالتوبة النصوح .

فيها يا عباد الله ..

نعود إلى الله بنفس صافية ، خالية من الحقد والحسد ، والعجب والكبر
حتى نفوز بالدنيا والآخرة ، وما ذلك على الله بعزيز .

وفي هذا الكتاب نقف — بحول الله — على التوبة النصوح ، ما هي
وكيف تكون ، وما هي علامات قبول التوبة أو ردها ، وما هي الأمور التي

تعين على التوبة النصوح ، وغير ذلك من الأمور الهامة في التوبة وما توفيقى
إلا بالله ، فإن كنت أصبت فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمنى ومن
الشیطان . وأعوذ بالله من كل شیطان مرید .

اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، واغفر لصاحبه ما تعلمه
عنه إنك على كل شيء قدير .

أبو مریم
مجدی بن فتحی السید

* * *

بين يدي الكتاب آيات التوبة في القرآن

وردت مادة كلمة توب بتصاريدها المختلفة (٨٧) مرة في القرآن الكريم
وهي على الترتيب التالي ^(١) :

تاب — تابا — تابوا — تبت — تبتهم — أتوب — تنوبا — يتب —
يتوب — يتوب — يتوبوا — ينوبون — تب — توبوا — التواب — توبة —
توبتهم — تأبأت — التأبئون — توءأب — تواب — تواباً — التوابين —
متاب — متاباً ..

وهذا يبين لنا أهمية التوبة في الإسلام ، ومن ناحية أخرى يظهر لنا مدى
سعة رحمة الله عز وجل .



(١) المعجم المفهرس لللغات القرآن .

التعريف اللغوى للمادة « توب »

قال فى القاموس :

« تاب إلى الله توباً وتوبة ومتاباً وتابة وتوبة :

رجع عن المعصية وهو تائب وتواب »

ويقال تاب العبد أى رجع إلى طاعة ربه ، وعبد تواب أى كثير الرجوع إلى الطاعة .

وأصل التوبة الرجوع : - يقال تاب ، وثاب ، وآب ، وأتاب وكلها بمعنى رجع .

قال الحليمى رحمه الله (٢) :

كان المذنب ذاهباً أو آبق من الله تعالى لمفارقته طاعته ومخالفته أمره ، فإذا نزع مسا هو فيه ، وعاد إلى الطاعة كان كالعبد يعود إلى سيده .. انتهى .

وبعد فيعباد الله إن الله عز وجل أمر بالتوبة فقال :

« وتوبوا إلى الله جميعاً » (٣) ..

ووعده بالقبول فقال عز وجل :

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » (٤) ..

وفتح باب الأمل والرجاء فقال تبارك وتعالى :

« قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم » (٥) ..

وإليك تفاصيل موضوع النوبة وما يتصل به من أحكام وآداب .

(٣) سورة النور : ٣١

(٢) المنهاج فى شعب الإيمان ٣ / ١٢١

(٥) سورة الزمر : ٥٣

(٤) سورة الشورى : ٢٥

الباب الأول

في بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلموا يا عباد الله أن العلماء من سلف وخلف قد أجمعوا على أن التوبة واجبة على الفور والدوام ، من كل ذنب صغيراً كان أم كبيراً ، وقد جاء الوحي المبين ، والنبي الأمين - صلى الله عليه وسلم - بالحث على هذا الأمر العظيم .

فقال الله جل ثناؤه :

« وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٦) . .

وقال تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » (٧) . .

وقال عز وجل :

« وإن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً » (٨) . .

وقال :

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (٩) . .

(٧) سورة التحريم : ٨

(٩) سورة الشورى : ٢٥

(٦) سورة النور : ٣١

(٨) سورة هود : ٣

وقال :

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » (١٠) . .

وقال :

« أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » (١١) . .

وقال :

« الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » (١٢) . .

وقال النبي المعصوم - صلى الله عليه وسلم - الكثير في بيان ذلك فأليك بعض الأحاديث النبوية في بيان ذلك :

١ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (١٣)

٢ - عن الأغر بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروا ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » (١٤) .

٣ - عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها . (١٥) .

٤ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١١) سورة المائدة : ٧٤
(١٣) رواه البخارى فى الصحيح .
(١٥) رواه مسلم فى الصحيح .

(١٠) سورة المائدة : ٣٩
(١٢) سورة الفرقان : ٧٠
(١٤) رواه مسلم فى الصحيح .

« من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (١٦) .

٥ - عن ابن عباس رضى الله عنهما وأنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب (١٧) .

٦ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانقلبت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة واضطجع في ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها (١٨) ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » (١٩) .

٧ - عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٢٠) .

* * *

(١٦) رواه مسلم في الصحيح

(١٧) متفق عليه .

(١٨) الخطام ما وضع في أنف البعير ليفتاد به من جبل ونحوه .

(١٩) متفق عليه وهذه رواية لمسلم .

(٢٠) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ما ورد عن السلف الصالح في بيان وجوب التوبة وفضلها

● قال رجل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ ، فأعرض عنه ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق فاعمل ولا تيأس .

* * *

● قال طلق بن حبيب . . رحمه الله :

إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين ، وامسوا تائبين .

* * *

● وقال سعيد بن المسيب رحمه الله :

في قوله عز وجل :

« فانه كان للأوابين غفورا » (٢١) . .

هو الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

* * *

● وقال مجاهد رحمه الله :

من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين .

* * *

● وقال لقمان - رحمه الله - لابنه :

يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة .

● وقال عبد الله بن حبيب رحمه الله :

إنكم لن تطيقوا غضب الله نعالى عليكم كلما عصيتموه فأمسوا تائبين ،
وأصبحوا كذلك تائبين .

* * *

● كان الفضيل بن عياض - رحمه الله -

يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد « عليكم بالتوبة فإنها
برد عنكم ما لا ترده السيوف » .

* * *

● قال الحسن رحمه الله :

ابن آدم إياك والتسوية فإنك بيومك ، ولست بغدك .
أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عسره منه على دراهمه .

* * *

● قال أبو سليمان الداراني - رحمه الله :

لو لم يبك العاقل إلا على نفوثة ما مضى منه في غير طاعة لكان خليقاً
أن يحزنه ذلك إلى المسات ، فكيف بمن يستقبل ما بقى من عسره بشئ ما مضى
من جهله .

* * *

● قال مجاهد رحمه الله :

ما من يوم إلا ويقول يا ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ، ولن أرجع إليك
بعد اليوم ، فانظر ماذا تعمل في . فإذا انقضى طوى إلى يوم القيامة .
- قيل لرجل من قيس : اوصنا . قال أنذرتكم سوف .

* * *

● قال أحد السلف :

« إن ملك الموت إذا ظهر للعبد . يبدو على وجهه - أى العبد - الأسف والحسرة ما لو كان له الدنيا بحذافيرها لخرج منها » .

وصدق الله العظيم حيث يقول :

« وانفقوا من ما رزقناكم من قبل ان ياتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرجتني الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون » (٢٢) .

— وقال أحد السلف : أصبحتم فى أمنية ناس كثير .

يعنى أن الأموات كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها ، ويجهتدوا فى الطاعة ، ولكن هيهات هيهات نأ يشتھون .

نعم يا عباد الله إن السلف الصالح أحسوا بقيمة التوبة فعملوا لها ، لأن العبد العاقل إذا ملك من الأموال الكثير ، تم ضاعت منه بغير فائدة تعود عليه ، بكى عليها لا محالة ، وهذا العمر عبارة عن أنفاس هى رأس مال العبد بها يشتري من نعيم الجنة ما يشاء ، فكيف يضيع ذلك العمر بلا توبة نصوح .



● قال ابن رجب رحمه الله :

كم من قائم لله فى هذا الليل قد اغتبط بقيامه فى ظلمة حفرته ، وكم من نائم فى هذا الليل قد ندم على طول نومه ، عندما يرى كرامة الله عز وجل للعابدين غداً ، فاغتموا مسر الساعات والليالى والأيام . انتهى

واعلم أخى المسلم .. وأختى المسلمة ..

أن التوبة ملازمة للعبد فى شبابه ، وكبره ، فى رخائه ، وشدته .

قال الإمام ابن القيم (٢٣) رحمه الله :

(٢٢) سورة المنافقون : ١٠ ، ١١

(٢٣) مدارج السالكين ١/ ١٩٨

« منزل التوبة أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها . فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات .

وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وقد قال الله تعالى :

« وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٢٤) .

هذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان ، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأنى بأداة « لعل » المشعرة بالتراخي ، إيذاناً بأنكم إذا نبتتم كنتم على رجاء انفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . انتهى . وبعد .. أما الآن لنا أن نعود ، ونندم على ما كان ، ونحسن فيما بقى ، لعل الله يغفر لنا ما سلف .

قال الامام ابن الجوزي (٢٥) رحمه الله :

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية . يا أسير المعاصي ابك من الذنوب الماضية ..

يا مبارزاً بالقبائح أنصبر على الهاوية ؟

يا ناسياً ذنوبه والصحف للسنى حاوية ..

أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنبت ، واحسرة لك إذا دعيت إلى التوبة فسا أجبت .

كيف تصنع إذا نودي بالرجل وما تأهبت .

الست الذي بارزت بالقبائح وما راقبت . انتهى

(٢٤) النور : ٣١

(٢٥) التبصرة ١ / ٢٨

قال النسيب:

قد مضى في اللهو عمري
وتناهى فيه أُمري
شمر الأكياس وأنا
واقف عند شيب أُمري
بان ربح الناس دوني
ولحنين بان خسري
ليتني أقبل وعظي
ليتني أسمع زجري
كل يوم أنا رمن
بين آتامي ووزري
ليت شمري هل أرى لي
هبة في فك أسري
أو أرى في ثوب صدق
قبل أن أنزل قبرى
ويح قلبى من تناسيه
مقامى يوم حشري
واشتغالى عن خطايا
أثقلت والله ظهري

* * *

الباب الثاني

بيان التوبة النصوح وشروطها

قال الله عز وجل :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » (١) . .

قال ابن كثير (٢) رحمه الله .

« أى توبة صادقة جازمة نسحو ما قبلها من السيئات . وتلم شعث التائب
وتجسسه وتكفحه عما يتعاطاه من الدناءات » . انتهى

اعلم يا أخى المسلم وأنت آخى المسلمة أن مجبىل ما قال العلماء فى
التوبة النصوح هو :

« أن يقلع عن الذنب فى الحاضر ، ويندم على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزم
على أن لا يفعل فى المستقبل ، ثم أن كان الحق لأدمى رده اليه بطريقه » . .
وإليكتم تفاصيل أقوال السلف فى ذلك :

* * *

● قال ابن مسعود رضى الله عنه :

هى التى لا عودة بعدها كسا لا يعود اللبن إلى الضرع .

* * *

١ : سورة النحریم : ٨

٢ : تفسير ابن كثير ٤ / ٣٩١

● قال سعيد بن جبير رحمه الله :

هي التوبة المقبولة ، ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط ، خوف
الا تقبل . ورجاء أن تقبل ، وإدمان الطاعات .

* * *

● وقال الحسن رحمه الله :

التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ، ويستغفر منه إذا ذكره .

* * *

● وقال سعيد بن المسيب رحمه الله :

توبة تنصحون بها أنفسكم .

* * *

● قال الكلبي رحمه الله :

التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن
الذنب : والاطمئنان على أن لا يعود .

* * *

● قال القرظي رحمه الله :

يجبها أربعة أشياء الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار
ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الخلان .

* * *

● قال الفضيل رحمه الله :

هو أن يكون الذنب بين عينيه ، فلا يزال كأنه ينظر إليه .

* * *

● وقال النووي رحمه الله (٣) :

التوبة واجبة من كل ذنب . فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي ، فلها ثلاثة شروط :

أحدهما :

الإقلاع عن المعصية .

والثاني :

أن يندم على فعلها .

والثالث :

أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة ، لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فتشروطها أربع ، هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه . وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طاب عفوه . وإن كانت غيبة استحلها منها ، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب . فإن تاب من بعضها صحت توبته — عند أهل الحق — من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي ، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .. انتهى .

فهيا يا عباد الله عودوا إلى ربكم من قبل يوم الحساب . واعملوا لأنفسكم من قبل أن تلتف الساق بالساق . إن الله جعل الليل والنهار لمن أراد الذكرى ، وإنما جعلنا سبيلاً للؤمنين ليكونوا لربهم من المستعدين ، وجعلنا وبالا على الغافلين ، الذين ساروا خلف كل شيطان مريد .

كما قال عز وجل :

« وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » (٤) ..

* * *

(٣) رياض الصالحين (١٧) .

(٤) سورة الفرقان : ٦٢ .

قال الحسن رحمه الله في تفسيرها :

من عجز بالليل كان له من أول النهار مستعقب . ومن عجز بالنهار كان له من الليل مستعقب .

وقال : ليس يوم من أيام الدنيا إلا يتكلم يقول يا أيها الناس إني يوم جديد ، وعلى ما يعمل في شهيد .

* * *

● وقال عيسى بن مريم عليه السلام :

إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما ، اعملوا الليل لما خلق له ، واعملوا النهار لما خلق له .

هذا يا أخي ما جاء من أقوال العلماء في تعريف التوبة النصوح فانظر إليها ، وتدبر وفكر ، كم أنها كبيرة ، وكيف هي عسيرة . ولكن اعلم أنك لو قت بها لفزت فوزاً عظيماً .

* * *

التوبة

فالياء أخى المسلم وبأختى المسلمة بعض النماذج البشرية التى تابعت الى
الله - عز وجل - توبة نصوحاً ، ففازت بالدنيا والآخرة :

١ - عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال كان
فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض
فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل من توبة ،
فقال : لا ، فقتله فكبيل به المائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على
رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول
بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها اناساً يعبدون الله تعالى
فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرض كذا وكذا (٥) فإنها أرض سوء ، فانطلق
حتى إذا نصف الطريق ، أتاه الموت ، فأختصت فيه ملائكة الرحمة ،
وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ،
وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صبرة آدمى
فجماوه بينهم - أى حكماً - فقال :

قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاوسوا ، فوجدوه
أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة « (٦) وفى رواية فى
الصحيح :

« فأوحى الله تعالى إلى هذه الأرض أن تباعدى ، وإلى هذه أن تقربى ،
وقال قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » .

(٥) أى الأرض التى ارتكب فيها هذه المعاصى وهى القتل . فعلى الانسان ان يبتعد عن
المكان الذى كان يعصى الله فيه اذا أراد التوبة .
(٦) متفق عليه .

٢ - عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتته امرأة من جهينة وهى حبلى من الزنا .

فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علىّ ، فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليها فقال له احسن إليها فإذا وضعت فأتني ففعل ، فأمر نبي الله صلى الله عليه وسلم فشددت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها .

فقال له عمر تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل (٧) .

٣ - عن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال : إن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى فردّه ، فلما كان الغد أتاه فقال يا رسول الله إنى قد زنيت فردّه الثانية ، فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم ، فكان الناس فيه فريقين ، فقائل يقول : لقد هلك وأحاطت به خطيئته ، وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم « (٨) .

فانظروا يا عباد الله إلى التوبة النصوح وما لها عند الله من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، فما علينا إلا أن نتذكر سعة رحمة الله ونعود إليه فى خشوع وخصوع ، بالليل والنهار .

ويقول الامام ابن رجب (٩) رحمه الله :

فى بيان ما حدث من ماعز والمرأة الغامدية :

(٧) رواه مسلم فى الصحيح .

(٨) رواه مسلم فى الصحيح .

(٩) التبصرة ١ / ٣٦٠

« اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مقتته لنفسه على قبح زلته ، فانظر إلى مقت هؤلاء أنفسهم — حتى أسلموها إلى الهلاك غضباً عليها لما فعلت . انتهى .

نعم إنهم علموا أن إقامة الحدود مكفرات للذنوب ، فأرادوا أن يعودوا إلى الله وقد أصبَحُوا في طهر من دنس الماضي ، أرادوا الآخرة فمَسَلُوا لها ، وخافوا من عذاب الآخرة ، فطهروا أنفسهم وهم في الدنيا .

* * *

قال الامام ابن الجوزي :

لو رأيت التائب لرأيت جفنًا مقروحاً ، تبصره في الأسحار على باب الاعتذار ، سمع قول الإله يوحى فيما يوحى .

« توبوا الى الله توبة نصوحاً » ..

مطعمه يسير ، وحزنه كثير ، أنحل بدنه الصيام ، وأتعب قدمه القيام ، فبذل جسداً وروحاً .

* * *

« توبوا الى الله توبة نصوحاً » ..

أين من يبكي جنایات الشباب التي بها اسودَّ الكتاب ؟
أين من يأتي إلى الباب يجد الباب مفتوحاً .

* * *

« توبوا الى الله توبة نصوحاً » ..

يا نادماً على الذنوب أين أثر ندمك ؟
أين بكائك على زلة قدمك ؟

أين حذرک من أليم العقاب ؟

أين قلقک من خوف العتاب ؟

أعتقد أن التوبة قول باللسان ، إنما التوبة دواء يطهر الإنسان ،
جرد قلبک من الأقدار ، ثم ألبسه الاعتذار ، ثم حله حلة الانكسار ،
ثم أقمه على باب الدار .

إخوانی ذهبت الأيام ، وكتبت الآثام ، وإنسا ينفع الملام متيقظاً ،
والسلام .

* * *

الباب الثالث

فوائد التوبة النصوح

اعلم عبد الله أن للتوبة النصوح من الفوائد ما لا يعلمه إلا الله عز وجل وقد تكلم الكثير من السلف - رضى الله عنهم - عن هذه الفوائد وأكثروا من ذكرها ومن خير ما قيل في ذلك ما قاله الإمام الرابع الأصمهاني ^(١) يقول :

الأولى :

أنه قد جرب العيوب وعرف مداخل الشيطان على الإنسان فيكون أهدي إلى الاحتراز من الشر .

الثانية :

أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتى باب مولاه وهو خزيان منكسر فعاد وجلاً خائفاً .

الثالثة :

أن التائب قد حلب الدهر خيرته ، وشره حلوه ومره فهو أرفق بالمذنبين فلا يعجب بنفسه ويزرى بغيره . انتهى .

* * *

وقال الامام ابن القيم ^(٢) رحمه الله في تلك الفوائد :

احدها :

أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله . وأكرمها عليه فإنه سبحانه

(٢) مدارج السالكين ١ ٣٢٣

(١) الدررمة (٣٤١) .

يجب التوايين . ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب اكرم الخلق عليه ، فذبحته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبة من التوبة ، وزيادة محبته لعبده .

ثانيها :

أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات . ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبي - صلى الله عليه وسلم - بفرح الواحد نراحتته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة ، بعدما فقدوها ، وأيس من أسباب الحياة . ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة . ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه . وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد . فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبة .

ثالثها :

أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع . والتساق لله ، والتذلل ، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة .

رابعاً :

أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره . فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر ، والعبودية ، والمجبة . وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية . والله سبحانه وتعالى أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه كما في الإسرائيليات عن موسى عليه السلام قال : يارب أين أجذك ؟ قال عز وجل : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى وهذا - والله أعلم - هو السر في استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم والمسافر والصائم .

خامساً :

أن الذنب قد يكون أنفع للعبد - إذا اقترنت به التوبة - من كثير من الطاعات . وهذا معنى قول بعض السلف « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة . ويعمل الطاعة فيدخل بها النار » .

قالوا : وكيف ذلك ؟ قال بعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إن قام وإن قعد ، وإن مشى ذكر ذنبه ، فيحدث له انكساراً ، وتوبة ، واستغفاراً ، وندماً ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه . إن قام وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ، فتكون سبب هلاكه .

سادساً :

وهو قوله تعالى :

« الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً » (٣) ..

وهذا من أعظم البشارة للمتأبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة . قال ابن عباس رضى الله عنهما :

ما رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت . وفرحه بنزول .

« انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٤)

واختلفوا في صفة التبديل .

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها . فبدلهم بالشرك إيماناً . وبالزنا عفة وإحصاناً ، وبالكذب صدقاً ، وبالخيانة أمانة .

وقال سعيد بن المسيب : هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة . فيعطيهن مكان كل سيئة حسنة .

سابعاً :

هو أن التائب قد بدل كل سيئة بدمه عليها حسنة . إذ هو توبة تلك

(٢) سورة الفرقان : ٧٠

(٤) سورة الفتح : ١ ، ٢

السيئة ، والندم نوبة . والتوبة من كل ذنب حسنة . فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار .

ثامناً :

أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعا ، وأحب إلى الله من عصيته من ذلك الذنب . من ذل وانكسار وخشية ، وندم ، وتدارك بمرامضة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه حتى يقول الشيطان :

ياليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه .



وقال الشيخ الشقمي الرستاقى - في بيان بعض الفوائد (٥) :

والتوبة الرجعة إلى الله تعالى من كل ذنب قال الله تعالى :

« غافر الذنب وقابل التوب » . .

وتاب الله على العبد توبة ومتاباً . قال الله تعالى :

« وأنا التواب الرحيم » . .

وقيل يحصل بالتوبة : التوفيق للطاعات . والذنوب تورث الحرمان من الحسنات ، وتعقب الخذلان عن الإكثار من أعمال الخيرات لأن الذنوب بمنزلة القيد للعبد ، يمنع من السعى إلى أعمال الطاعة ، وعن الخفة والنشاط إليها .

وقيل إن الإصرار على الذنوب يسود القلوب ، ويلقيها في ظلمة وقساوة ، وربما تقود صاحبها إلى الكفر والقساوة والعصيان . وربما قاد الذنب إلى ذنب أعظم منه ، ولا يطمع المصر على المعصية القريب من الشيطان بقرب الله تعالى ، والوصول إلى رضاه إلا توبة وندم وإخلاص عمل .

وقيل إذا لم تقوم على قيام الليل ، وصيام النهار فاعلم أنك مكبول قد
كبتك خطاياك ، فالتوبة عن المعاصي فرض لازم .

والتوبة توبة القلب عن الذنوب ، وترك اختيار الذنب ، وتوطين القلب
على الطاعة ، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب أبداً . فهذه شرائط التوبة
وأركانها فإذا حصلت ، وكملت ، فهي توبة حقيقية صادقة إن شاء الله تعالى
أما عن الذي يحتاج إليه السائر في طريق التوبة يقول الشيخ :

« ويحتاج التائب إلى ذكر ثلاثة أشياء ، ذكر غاية قبح الذنوب ، وشدة
غفوبة الله تعالى عليها وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة للعبد به ، وضعف
العبد وقلة حيلته في ذلك .

فإن من لا يحتل جسده حر الشمس ، وقرص نيلة فكيف يحتل حر
نار جهنم ، وضرب الزبانية بسقام الحديد ، ولسع حيات كاعناق النجب ،
وعقارب كالبغال ، فنعوذ بالله من سخطه وعذابه ، فمن واظب على ذكر
هذه حبله على التوبة النصوح . والله الموفق بفضله . انتهى

* * *

الباب الرابع

بيان وقت التوبة

اعلموا عباد الله أن الله - عز وجل - قد حدد للتوبة موعداً ، وقد بين ذلك في كتابه الكريم في قوله جل ثناؤه :

« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً » ..

قال مجاهد :

كل من عصى الله خطأ او عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب .

* * *

وقال ابن عباس :

من جهالته عمل السوء .

* * *

وقال الحسن البصري :

« ثم يتوبون من قريب » ما لم يغرغر .

* * *

وقال ابن عباس :

« ثم يتوبون من قريب » قبل المرض .

* * *

(١) سورة النساء : ١٧

قال ابن رجب :

الجهنم على أن التوبة من قريب أى قبل الموت فالعمر كله قريب ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد ، فمن تاب قبل أن يفرغ فقد تاب من قريب . انتهى .

اعلموا عباد الله أن هذه الآية الكريمة قد بينت ، ودلت على أمر عظيم ، ألا وهو أن الله - تبارك وتعالى - يقبل توبة العاصي مادامت الروح في ذلك البدن ، كما ورد .

● عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يفرغ » (٢) .

ولذلك يقول ابن رجب رحمه الله :

هذا إشارة إلى أفضل أوقات التوبة ، وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته ، قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح واذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن الكريم كقوله عز وجل :

« ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً » (٣) .

وأيضاً فالتوبة في الصحة ترجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة ورجاء البقاء .

والتوبة عند حضور الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت ، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استنفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه ، ولذا دناها ، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ وترك ما كان عليه ، فأين

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان وقال الترمذي حديث حسن .

(٣) سورة الفرقان : ٧١

توبة هذا من توبة من يتوب من قريب ، وهو صحيح قوى فادر على المعاصي
فيتركها خوفاً من الله عز وجل ، ورجاء نوابه وإشاراً لطاعته على معصيته ..
اتتهى .

* * *

● وقال على رضى الله عنه :

لا يزال العبد فى مهل من التوبة ما لم يأتته ملك الموت يقبض روحه ،
فإذا نزل ملك الموت فلا توبة حينئذ .

* * *

● وقال ابن عمر رضى الله عنه :

التوبة مبسطة ما لم ينزل ملك الموت . واعلموا يا عباد الله أن الإنسان
مادام يأمل الحياة فإنه يقطع أمله من الدنيا ، وقد لا تسمح نفسه بالافلاع
عن لذاتها وشهواتها من المعاصي ، ويرجيه الشيطان — عليه اللعنة — بالتوبة
فى آخر عمره . فإذا تيقن الموت أفاق من سكراته بشهوانه الدنيوية ، فندم
عند ذلك على تفریطه فى جنب الله ، وندم ندماً شديداً ، حتى كاد أن يقتل
نفسه ، ويطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحاً فلا يجاب إلى شيء
من ذلك ، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الموت . وقد حذرنا عز وجل
من ذلك فقال :

« وانيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم
لا تنصرون . وانبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب
بفتنة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ،
وأن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو
تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من الحسنين » (٤) . .

فاسمع يا عبد الله ، وأنت يا أمة الله إلى التفجع والتعسر الواضح من
الآيات ، بل والله لقد سمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم وجهه ويقول
« يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله » . ويقول الآخر : « سخرت بى

الدنيا حتى ذهبت أيامي . ويقول الثالث : « ويحكم يا إخواني لا تفتروا
بشبابكم ولا تغرئكم الدنيا كما غرئتني » وصدق الله العظيم حيث يقول :
« حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحاً
فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها » (٥) ..

وقال عز وجل :

« وحيل بينهم وبين ما يشتهون » (٦) ..

* * *

● قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

إنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها .

* * *

● وقال الحسن رحمه الله :

اتق الله يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان سكرة الموت وحسرة
القوت .

* * *

● وقال ابن السماك :

احذر السكرة والحسرة أن يفجأك الموت وأنت على الغرة فلا يصف
واصف قدر ما تلقى ولا قدر ما ترى .

* * *

● وقال يحيى بن معاذ رحمه الله :

الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم يبق إلا في عسكر الموتى نادماً مع
الخاسرين .

* * *

● قال ابن رجب رحمه الله :

غاية أمنية الموتى في قبورهم ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة ،

وعمل صالح ، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعاً .

* * *

● وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

قد خاب وخسر من خرج من تحت رحمة الله التي وسعت كل شيء ،
وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً
بباق .

* * *

● قال ابن الجوزي رحمه الله (٧) :

طوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة ، ورجع عن خطاياہ قبل فوت الأوبة ،
وبادر الممكن قبل أن لا يسكن .

من رأيت من آفات دنياه سلم ؟ ومن شاهدته صحيحاً وما سقم . وأى
حياة بالموت لم تنته ؟ وأى عسر بالساعات لم ينصرم ؟ إن الدنيا لغرور
حائل ، وسرور إلى شرور آيل ، تردى مستزيدها ، وتزذى مستفيدها ،
بينما طالبها يضحك أبكته ، ويفرح بسلامته أهلكته ، فندم على رلله إذ قدم
على عسله . وبقي رهين خوفه ووجلہ ، وود أن لو زيد ساعة في أجله ، فما
هو إلا أسير في حفرتہ . وخسير في سفرتہ ، وهذه وإن كانت صفة من عنا
نأى فكذا تكون لو أن العاقل ارتأى .

* * *

قال الشاعر :

سبيك في الدنيا سبيل مسافر
ولا بد من زاد لكل مسافر

ولا بد للإنسان من حمل عدة
ولاسيما إن خاف سطوة قاهر
وطرقك طرق ليس تسلك دائماً
وفيهما عقاب بعد صعب القناطر

* * *

● وقال الحسن البصري رحمه الله :

يا ابن آدم بع عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك
فتخسرهما جميعاً ، الثواء ههنا قليل ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ،
المعاينة فكأنها والله قد كانت ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم .

يا ابن آدم ذينك دينك ، فإن سلم لك دينك ، سلم لك لحمك ودمك ،
وإن تكن الأخرى فإنها نار لا تطفأ ، ونفس لا تموت ، إنك معروض على
ربك ، ومرتهن بعملك ، فخذ مما في يديك عند الموت يأتيك الخير .

يا ابن آدم ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة .

يا ابن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا فتعلقه بشر معلق ، قطع حبالها وأغلق
عنك بابها ، حسبك ما بلغك المحل .

* * *

الباب الخامس

في بيان علامات قبول التوبة أو ردها

اعلم أخى المسلم وأنت أختى المسلمة ..

أن للتوبة المقبولة من العلامات الكثير ، وكذلك للتوبة المردودة على صاحبها الكثير من العلامات وقد ذكرهما الإمام ابن القيم ^(١) رحمه الله ، وها نحن نوجز كلا منهما على حدة .

أولا علامات التوبة المقبولة :

١ - أن يكون بعد التوبة - أى العبد - خيراً مما كان قبلها قلت : نعم والله ، لا بد للعبد أن ينظر إلى نفسه بعد التوبة هل زاد في الحسنات ، أما أنه كما هو يسير في طريق السيئات ، فإن كانت الأولى فيها ونعمت ، وإن كانت الأخرى فليعلم ذلك المسكين أن الله - عز وجل - قد رد عليه التوبة .

٢ - أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين .

٣ - انخلاع قلبه ندماً وخوفاً ، وهذا على قدر عظيم الجناية وصغرها . فمن لم ينقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وندماً ، تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق ، وعابن ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا ، وإما في الآخرة .

(١) انظر مدارج السالكين ١ / ٢٠٦

٤ — ذل وخضوع خاص لا يكون لغير المذنب يجتمع عليه ، وعلى العبد أن ينتفع بذلك ، بأن يلتقى بنفسه على بساط رحمة الله ، ويطرق أبوابه

» أسألك بعزك وذلى إلا رحمتى ..

أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سوى كثير ، وليس لى سيد سواك .

لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك .

أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريب ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلل لك قلبه .

* * *

قال الشاعر :

يا من ألوذ به فيما أومله
ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره
ولا يهيضون عظماً أنت جابره

هذا يا عباد الله كان عن علامات التوبة المقبولة عند الله عز وجل .

* * *

علامات التوبة المردودة

١ - ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقفته .

قلت نعم والله إنها توبة الكذابين ، كلما زينت له نفسه المعصية قام بعملها مجترئاً على الله ، يستحى من الناس ، ولا يستحى من خالق الناس ، ويخشى الناس ، ولا يخشى رب الناس .

٢ - طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان . فهذا من علامات اتهام تلك التوبة .

٣ - جسود العين ، واستمرار العقلة ، وقسوة القلب ، وما أبعد ذلك القلب من الله .

قلت : نعم يا عباد الله إن أبعد القلوب من الله عز وجل ذلك القلب القاسى ، الذى لا يخشى الموت وما فيه ، ولا القبر وما فيه ، ولا النار وما بها ، إنه يحتاج إلى نيران الآخرة حتى تذيب من قسوته .

٤ - أن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة ، لم تكن له قبل الخطيئة .

ولكن لا بد لنا عباد الله أن نعلم بيقين أننا سنقع في الخطايا مرات كثيرة بل لا تحصى ، ولكن ما علينا إلا اللجوء إلى التوبة النصوح انظروا إلى العبد إذا سقط في أحوال الطين والماء هل يترك نفسه في ذلك الوضع ، وأليس بعد القيام يغسل الأقدام ، ويضع الأعطار ، كذلك العبد منا إذا وقع في المعاصي يعود إلى ربه ، حتى يصل إلى دار الخلد . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

« لو لم تذبوا لذهب الله بكم ثم لجاء يقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم » (٢) .

ويقول ابن رجب معلقاً على هذا الحديث :

« المراد بهذا أن الله تعالى حكمة في إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحياناً حتى تقع منهم بعض الذنوب » . ثم قال مبيناً هذه الحكمة :

« اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم ، وتنكيس رؤوس العجب ، أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات ، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب . انتهى .

* * *

● قال الحسن البصري رحمه الله :

إن العبد ليعمل الذنب فلا ينسأه ، ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة .

* * *

(٢) رواه مسلم في الصحيح .

من فوائد النظر الى المعاصي

واعلموا - يا عباد الله - ان للعبد من وراء المعاصي - بعد التدبر والفكر - الكثير من الفوائد ، وقد ذكر الامام ابن القيم - رحمه الله (٢) - منها الكثير وهذا هو ملخص لها :

اولا -

أن يعرف العبد أنه سبحانه العزيز الذي يقضى بما شاء ، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه ، بأن قلب قلبه ، وصرف إرادته على ما يشاء ، وهذا من كمال عزته إذ لا يقدر على ذلك إلا الله .

ثانياً :

أن يشهد أن الكمال والحمد لله ، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم ، والعيب ، وكلما ازداد شهوده لذله وعييه ، ازداد شهوده لعزة الله وكماله .

ثالثاً :

أن يعرف بره - سبحانه وتعالى - في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له . ولو شاء لفضحه بين خلقه ، وهذا من كمال بره فيعلم كيف أنه هو البر الغفور .

رابعاً :

معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه ، بنحو ما تقدم فيشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله . وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك .

(٢) مدارج السالكين ١ / ٢٢٥ ، مفتاح دار السعادة ٢ / ١٨٢

خامساً :

أن يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ، ومعوته ، فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينه وبين نفسه .

سادساً :

من معرفة عزته في قضائه ، وبره في ستره ، وحلمه في إمهاله ، وكرمه في قبول العذر منه ، وفضله في مغفرته ، يعرف العبد أنه مقهور ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلا بعصمته ، ولا توفيق إلا بمعوته ، فهو ذليل حقير ، في قبضة عزيز حميد .

سابعاً :

إقامة حجة عدلة من الله على عبده ، ليعلم العبد أن الله عليه الحجة البالغة فإذا ما أصابه من مكروه فلا يقال من أين هذا ، ولا من أين أتيت ، ولا بأي ذنب أصبت . فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بسا كسبت يده ، وما يعفو الله عنه أكثر وما نزل بلاء قط إلا بذنب ، ولا رفع بلاء إلا بتوبة .

ولذا وضع الله المصائب والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهي من أعظم نعمه عليهم .

ثامناً :

أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه ، ولم يقابله بأساءته اساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى . وأنه سبحانه يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه كما كان هو يقابل بذلك اساءة الخلق إليه ، والله أوسع فضلاً وأكرم .

فليتأمل هو حاله مع الله كيف هو مع فرط إحسانه إليه ، وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له .

فإذا كان العبد هكذا لربه ، فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة

تاسعاً :

إذا شهد ذنوبه ومعاصيه ، ونفريطه في حق ربه ، استكثر القليل من نعم ربه عليه ، ولا قليل منه ، لعلسه أن الواصل إليه منها كثير على مسمى مثله .
ولو لم يكن في فوائد الذنب إلا هذا لكفى به .

عاشراً :

أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس ، والفكر فيها فإنه في شغل بعبء نفسه ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس .

قلت : - سبحان الله ، إذا كانت تلك الفوائد تأتي للعبد من وراء المعاصي ، فكيف بالحسنات ، أنها أعظم ، ولكننا لا نتفكر ، ولا نتذكر ، والا لقمنا بهلاء الليل والنهار بالحسنات ..

فكيف بنا ونحن نغرق في السيئات . اللهم اغفر لنا ، واستر علينا بفضلك ومنك .

الباب السادس

بيان أقسام العباد في التوبة

اعلموا عباد الله أن الناس ينقسمون بحسب التوبة — لا بحسب المال والجاه — هل هي توبة نصوح أم توبة كاذبة فما على كل عبد مسلم وأمة مسلمة إلا أن ينظروا جميعاً في أى الأقسام يكونون .

وقد ذكرها الإمام الغزالي ^(١) — رحمه الله وإليك إياها مع الاختصار وهي مرتبة بحسب مكانة صاحبها من أعلى السابقين إلى الظالمين لأنفسهم

* * *

القسم الأول :

تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا يتفك عنها البشر في العادات ، فهذه هي الاستقامة في التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات ، وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة التي يقال لها عند موتها .

« يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (٢) . .

(١) الاحياء ٤ / ٤٣ ، منهاج القاصدين (١٢٧) .

(٢) آخر سورة الفجر

وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر معرفته ففتر نزاعها ،
ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملئ بجاهدتها .

القسم الثاني :

تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات ، وكبائر الفواحش
إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها في مجارى
أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام
نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هي النفس اللوامة ،
لأنها تلوم صاحبها على الأحوال الذميمة ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله
سبحانه وتعالى إذ قال :

« الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللثم ان ربك واسع
المغفرة » (٣) . .

والجمهور على أن « اللثم » ما دون الكبائر ، كالنظرة ، والغزوة ونحو
ذلك .

أما القسم الثالث :

أن يتوب العبد ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته في بعض
الذنوب ، فيقدم عليها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة
من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوته ، وهو يود
لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك
الذنب فهذه هي النفس المسرولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خاطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » . .

فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات ، وكرهيته لما يتعاطاه مرجو .
لقله تعالى :

« عسى الله أن يتوب عليهم » (٤) . .

(٤) سورة التوبة : ١٠٢

(٣) سورة النجم : ٣٢

وعاقبته مخطرة من حيث تأخيرته وتسويفه فربما يموت قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم . فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل بها الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس . وليحذر وقوع المحذور . حتى لا يكون من النادمين ، مع الخاسرين .

* * *

أما القسم الأخير :

هو أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهكاً ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصيرين ، وهذه النفس هي الأمانة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح .

فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيته لا تضره ، ثم تراه يركب البحار في طلب دينار .

فلو قيل له فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس في بيتك لعله يرزقك استجهل قائل هذا وقال :

« إنما الأرزاق بالكسب » . فيقال له « هكذا النجاة بالتقوى » .

وبعد ..

هيا عباد الله انظروا إلى أنفسكم وحاسبوا أنفسكم من أي الأقسام هي ، هل هي سابقة إلى الخيرات ؟ ، أما أنها مقتصدة في الطاعات ؟ أما أنها ظالمة ؟

وصدق الله حيث يقول في محكم التنزيل :

« ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (٥) . .
اختلف العلماء في تفسير هذه الآية وقد رجح الإمام القرطبي (٦) رحمه الله واحداً هو :

أن « الظالم لنفسه » الذي عمل الصغائر ، و « المقتصد » هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها .

« والسابق بالخيرات » هم السابقون من الناس كلهم .

فلا بد لنا عباد الله على أى حال من الأحوال أن نتوب في الليل والنهار وإلا كنا من الظالمين كما قال عز وجل :

« ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون » (٧) . .

قال مجاهد في تفسيرها : من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين .

● فكان أخلاق السلف (٨) :

عدم الاغترار بالله تعالى بحيث يعتمد أحدهم على عفو الله ، ويترك الأعمال الصالحة ، بل كانوا يبذلون في الاجتهاد في العبادة ، ثم يعتمدون على فضل الله تعالى لا على أفعالهم .

● كان أحد العباد يكثر من العبادة حتى بدت أضلعه ، وكان إذا قيل له إن رحمة الله واسعة يزجر القائل ، ويقول صحيح ذلك ، ولولا سعة رحمته لأهلكنا بذنوبنا في طاعاتنا فضلاً عن معاصينا .

(٥) سورة فاطر : ٣٢

(٦) تفسير القرطبي - سورة فاطر : ٣٢

(٧) سورة الحجرات : ١١

(٨) من اخلاق السلف : احمد فريد .

(٩) المصدر السابق ص ٢٧

● كان حذيفة بن قتادة رحمه الله :

يقول : لو قال لى شخص والله إن أعمالك أعمال من لا يؤمن ييوم الحساب لقلت له صدقت لا تكفر عن يمينك .

* * *

ومن أخلاقهم رضى الله عنهم :

تقليل أعمالهم فى عيونهم من حيث كسبهم لها ، ولو كانوا على عبادة الثقلين ، فكانوا لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من حقوق الله تعالى ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى تفترت قدماء فقيل له أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » (١٠) ..

* * *

وكان عبد الرحمن بن هرمز الأعرج - رحمه الله - يقول :

فتشوا أنفسكم فيما هى عليه من القبائح فإن كل أحد يحشر غداً مع جنسه ، فمن وقع فى سائر المعاصى فله مع كل قوم حشراً . ثم يعاتب نفسه ويقول :

إن المنادى ينادى يوم القيامة : يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم .

ثم ينادى يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم . يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم .

فأراك يا أعرج تقوم مع كل طائفة .

* * *

(١٠) رواه البخارى ومسلم .

موعظة

قال ابن الجوزي (١١) رحمه الله :

سبحان من وفق للتوبة أقواماً ، ثبت لهم على صراطها أقداماً ، كفوا
الأكف عن المحارم احتراماً ، وأتعبوا في استدراك الفارط عظاماً ، فكفصر
عنهم ذنوباً وآثاماً ، ونشر لهم بالثناء على ما عملوا أعلاماً ، فهم على رياض
المدائح بترك القبائح ، يتقلبون .

« التائبون العابدون »

ندموا على الذنوب فندبوا ، سافروا إلى المطلوب فاغتربوا ، نظروا إلى
الدنيا بعين الاعتبار ، فعلموا أنها لا تصلح للقرار ، وتأملوا أساسها فإذا هو
على شفا جرف هار ، فنغصوا بالصيام لذة الهوى بالنهار ، وبالأسحار هم
يستغفرون .

« التائبون العابدون »

باعوا الفاني بالباقي وكتبوا وثيقة ، وحملوا نجائب الصبر فوق ما هي
له مطيقة ، وطلبوا الآخرة والله على الحقيقة ، هكذا يكون .

« التائبون العابدون »

يارب سر بنا في سرب النجاة . ووفقنا للتوبة والإنابة ، وافتح لأدعيتنا
آبواب الإجابة .

يا من إذا سألته المضطر أجابه ، يا من يقول للشئ كن فيكون .

« التائبون العابدون »

الباب السابع

من أحكام التوبة

١ - هل يجوز للمسلم أو المسلمة تأخير التوبة ؟

قال الإمام ابن القيم ^(١) رحمه الله مبيناً هذا الأمر العظيم :

إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور . ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصي بالتأخير .

فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى . وهى توبته من تأخير التوبة .

٢ - هل يجوز أن يتوب العبد توبة عامة للذنوب كلها ؟

قال الإمام ابن القيم :

« لا ينبغي من هذا إلا توبة عامة ، ما يعلم من ذنوبه وما لا يعلم . فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه . ولا ينفعه في عدم المؤاخظة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم . فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل فالمعصية في حقه أشد .

٣ - هل تصح التوبة من ذنب دون آخر ؟

فيه قولان لأهل العلم . وإليك ما رجحه الإمام ابن القيم :

والذى عندى فى المسألة ، أن التوبة لا تصح من ذنب ، مع الإصرار

(١) مدارج السالكين ١ / ٢٩٨

على آخر من نوعه . وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه . فتصح .

كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً . فإن توبته من الربا صحيحة . وأما إذا تاب من تناول الحشيشة وأصر على الخمر أو العكس ، فهذا لا تصح توبته . وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مُصِرٌّ على الزنا بغيرها غير تائب منها . فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب .

٤ - هل يشترط في صحة التوبة أن لا يعود إلى الذنب أبداً ؟

قال الإمام ابن القيم :

فشرط بعض الناس : عدم معاودة الذنب . وقال متى عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثر على أن ذلك ليس بشرط . وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته . فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

٥ - هل يجوز للعبد أن يقول إنما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود إلى الذنب ولا أثبت على التوبة ؟

قال الشيخ الرستاقى (٢) رحمه الله :

إن هذا من غرور الشيطان ، لأن العبد لا يدرى متى يفجؤه الموت ، فاعلمه يسوت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب .

وأما الرجعة إلى الذنب فعلى العبد العزم والصدق . وإتمام الإقامة على التوبة ، فإن ثبت على التوبة وسلم من الرجعة إلى الذنب ، فذلك بتوفيق الله تعالى وبفضله عليه .

فإن رجع إلى الذنب فقد تاب من ذنوبه السالفة وتخلص منها ، وتطهر من أهدارها ، وليس عليه إلا الذنب الذي أحدثه ، وهذا ربح عظيم وفائدة كبيرة فلا ينبغي للعبد أن يسعه من التوبة خوف الرجعة إلى الذنب .

فإن التائب لا يخلو أبداً من الفائدة .

ومن قبل الله توبته فقد أحبه لأن الله يقول :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

ومن أحبه الله فهو في غاية القرب منه ، فعلى العبد أن يجتهد ويستيقظ من رقدة الغفلة عسى أن يسلم من الإصرار ، ويتخلص من الأوزار ، ولا يأمن من قساوة القلب . فعلى العبد أن يبادر على التوبة عند كل ذنب صغير أو كبير ، فإن الأجل محتوم ، والدنيا غرور ، ولنا أسوة حسنة بأبينا آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله تعالى بيده ، وأسكنه جنته في جواره ، ولم يذنب إلا ذنباً واحداً ، فكيف حالنا في ذنوب لا تحصى ، نسأل الله تعالى أن يتوفانا عن توبة نصوح وعمل صالح مقبول إنه على كل شيء قدير .

فمن تاب ورجع إلى الذنب فإنه يرجع إلى التوبة أيضاً ، فلعله أن يسوت قبل أن يرجع إلى الذنب ، ويكون هذا حاله متى أحدث ذنباً ، فليحدث له توبة ، ولا يكون في التوبة أعجز منه في الذنب ، ولا يئأس من رحمة الله .. انتهى .

٦- كيف يكون حال العبد بعد التوبة ؟

قال الشيخ الرستاقى رحمه الله :

ينبغي للعبد أن يكون بعد التوبة أشد انكساراً ، وخشية ، فإنه إذا أعجب بتوبته أبطل العجب توبته ، وبقيت عليه ذنوبه .

وقال أبو الحواري رحمه الله :

إن الرجل ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة ، فيفـول الشيطان ياليتنى لم أوقعه فيه .

٧ - هل يشترط في التوبة من المظلمة في حق الآدمي بغيبة أو بقذف إعلامه ؟

مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي اشترطوا الإعلام . ذكره أصحابهم في كتبهم . واحتجوا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم :

« من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات » .

فهذا الذنب يتضمن حقان . حقاً لله ، وحقاً لآدمي ، فالتوبة منه بتحلل الآدمي لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه . قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتكمين ولي الدم من نفسه ، إن شاء اقتص ، وإن شاء عفا . وكذلك توبة قاطع الطريق ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أنه لا يشترط الإعلام بل يكفي توبته بينه وبين الله . وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة . فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته ويستغفر له بقدر ما اغتابه .

واحتج لذلك بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة . وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به .

٨ - هل يعود التائب إلى مرتبته التي كانت قبل المعصية بتوبته ؟

قالت طائفة : لا يرجع إلى درجته وحاله لأنه لم يكن في وقوف ، وإنما كان في صعود فبالذنب صار في هبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقى .

وقالت أخرى . يرجع إلى درجته لأن التوبة تجب الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله والصحيح أن من التائبين من

لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيراً مما كان قبل الذنب ، وكان - داوود عليه السلام - بعد التوبة خيراً منه قبل التوبة . وهنا مثل مضروب :

رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن فهو يعدو مرة ، ويمشى أخرى ، ويستريح تارة ، وينام أخرى . فبينما هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل ، وماء بارد ، ومقيل وروضة مزهرة فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير فعابن الهلاك ، وظن أنه متقطع به ، وأنه رزق الوحوش والسباع ، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه ، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون ؛ إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده ، وقال له : إركب الطريق واحذر هذا العدو ، فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد ، واعلم أنك مادمت حاذراً منه متيقظاً له ، لا يقدر عليك ، فإذا غفلت وثب عليك ، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعني على الأثر ، فإذا كان هذا السائر كيّساً فطناً ليبيّاً حاضر الذهن والعقل استقبل سيره استقبالاً آخر أقوى من الأول وأتمّ ، واشتد حذره ، وتأهب لهذا العدو ، وأعد له عدته .

فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيراً منه ، ووصله إلى المنزل أسرع :

وإن غفل عن عدوه ، وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ونقصان ولا قوة حذر ، ولا استعداد ، عاد كما كان وهو معرض لما عرض له .

أولاً : وإن أورثه ذلك توانياً في سيره ، وفتوراً وتذكر الطيب وقيله ، وحسن ذلك الروض ، وعذوبة مأه : لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان (٣) .

٩ - ما هي انواع التوبة ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٤) رحمه الله :

« التوبة نوعان : واجبة ومستحبة »

فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك في كتابه ، وعلى السنة رسله .

والمستحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات .

فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين . أ . هـ

عباد الله هذا قليل من أحكام التوبة ، ولكن فيه الخير الكثير فها تنوب .

* * *

(٤) رسالة في التوبة (١١)

موعظة

● قال الامام ابن الجوزي (هـ) رحمه الله :

لقد دعاكم إلى البدار مولاكم ، وفتح باب الإجابة ثم استدعاكم ، ودلكم على منافعكم وهداكم ، فصبوا ذنوب الحزن على ذنبكم .
« وسارعوا الى مغفرة من ربكم » ..

* * *

بابه مفتوح للطالبيين ، وجناحه مبذول للراغبين ، وفضله ينادى :

« يا غافلين ، وإحسانه ينادى : يا جاهلين ، فاخرجوا من دائرة المذنبين ، وبادروا مبادرة التائبين ، وتعرضوا لنسمات الرحمة تخلصوا من كربكم .
« وسارعوا الى مغفرة من ربكم » ..

* * *

كم شغلتم بالمعاصي فذهب الفرض ، وبارزتم بالخطايا ونسيتم العرض ، ففروا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طوله والعرض .
« وسارعوا الى مغفرة من ربكم » ..

* * *

الباب الثامن

بيان الأمور التي تعين على التوبة

أولاً :

أن يعرف العبد قدر عظمة الله عز وجل ، وقدرته وجبروته ، وأنه قادر على أن ينزل به عقاباً أليماً .

فمن ذلك يحصل العبد من السرعة في التوبة ما هو مشاهد بالتجربة قال أحد السلف :

لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى من عصيت .
وقال عز وجل :

« ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » (١) . .

قال بعض السلف : ما أنكم لا تقدرون عظمة الله ، وتعرفون قدره .

ثانياً :

أن يتذكر العبد الموت وما فيه من ألم وشدة ، والقبر وما فيه من وحشة وظلمة ، وغربة وفرقة ، فقد قال تعالى :

« كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » (٢) . .

(١) سورة نوح : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥

وقال جل ثناؤه :

((وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي ارض تموت)) (٣)

● وقال مجاهد رحمه الله :

أول ما يوضع ابن آدم في قبره يناديه القبر :

يا ابن آدم ويحك ما غرث بى ، ألم تعلم أنى بيت الدود ، ألم تعلم أنى بيت الفرقة ، ألم تعلم أنى بيت الظلّة . هذا ما أعددت لك ، فإذا أعددت لى ؟ .

* * *

● وقال ابن عمر رضى الله عنه :

إذا مسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

ثالثاً :

أن يعرف العبد أن الفلاح فى الدنيا والآخرة مرتين بالعمل للآخرة ، لأن الدنيا فانية ، وزائلة ، وما هى إلا ساعة ويعود إلى ربه ، قال عز وجل :

((يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقية)) (٤) ..

وقال عز وجل :

((واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرأ)) (٥) ..

وقال جل ثناؤه :

((يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تفرتكُم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور)) (٦) ..

(٣) سورة لقمان : ٣٤

(٤) سورة الانشقاق : ٦

(٥) سورة الكهف : ٤٥ - ٤٦

(٦) سورة فاطر : ٥

● وقال صلى الله عليه وسلم :

« لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » (٧) .

« ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع » (٨) .

* * *

● قال ابن عباس :

يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شماء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه .

فيقال : هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها .

وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم ، واغتررتم ، ثم تقذف في جهنم .

فتقول : يارب أين أتباعي وأتباعي ؟

فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأتباعها .

رابعاً :

أن يعلم العبد أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع ، وأن كل ما أصابه من مصائب ، فهو من قبل ذنوبه ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٩) .

* * *

(٧) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٨) رواه البخارى ومسلم .

(٩) سورة النحل : ٣٣ .

● قال الفضيل رحمه الله :

إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

* * *

● وقال ابن سيرين رحمه الله :

عيرت رجلا بالإفلاس منذ عشرين سنة فقلت له يا مفلس ، ولقد ابتلانى
الله الآن بالإفلاس .

* * *

● وقال الفضيل :

« ما من عبد تقوته صلاة فى الجماعة إلا بذنب أذنبه » ..

* * *

موعظة

● قال ابن الجوزي (١٠) رحمه الله :

أيتها النفس اقلعي عن الجناح وتوبى ، وراجعى إلى الصلاح وأوبى ،
أيتها النفس قد شان شأنى عيوبى ، أيتها الجاهلة تكفينى عيوبى وأأسفاه
من حياة على غرور ، وموت على غفلة ، ومنقلب إلى حسرة ، ووقوف يوم
الحساب بلا حجة .

يا هذا مثل نفسك فى زاوية من زوايا جهنم وأنت تبكى أبدأ وأبوابها
مغلقة ، وسقفها مطبقة ، وهى سوداء مظلمة لا رفيق تأنس به ، ولا صديق
تشكو إليه ، ولا نوم يريح .

* * *

● قال كعب الأحبار :

إن أهل النار ليأكلون أيديهم إلى المناكب من الندامة على تفریطهم ،
وما يشعرون بذلك .

* * *

قال الشاعر :

يا ويح نفس رضيت بالسقم
وفرطت فى عـــــــمر منصرم
تستتر باللهو وتنسى حتفها
وتؤثر البعد على التقدم

(١٠١ المدعى ١٧٧)

تفرح بالفانى فما تطلب ما
يبقى لها فمن يكون حكى
كم من ذنوب لك قد سترها
وعاد بالفضل والكرم
كم واعظ في كل زاجر
وكم نذير زائر مسلم
أين الذين شيدوا واحترسوا
وأين من كان كثير النعم
وكم يناديك لسان وعبرة
وأنت عن قول الهدى في صمم
مضى الجميع هل نرى من أثر
لهم وصاروا في بيوت الظلم
تبذلوا بالتراب ترابا كلهم
في قعر لحد ضيق منهم
تفصلت عظامهم وحصلت
أعمالهم وأصبحوا كالعدم
وباشروا التراب بعد ترف
وشرف وحجب وخسار
لو قيل قولوا ما مناكم طلبوا
حياء يوم ليتوبوا فاعلم
ويحك يا نفس ألا تيقظ
ينفع قبل أن تزل قدمي
مضى الزمان في توان وهوى
فاستدركى ما قد بقى واغتسى

من لى إذا نزلت لحداً مظلماً
هذا وكم من نازل لم يسلم
من لى إذا قرأت ما أمليته
اقبح مسطور جرى بالقلم
من لى إذا أزعج قلبى حسرة
وهل ترى يشفى بفوزى ألى

* * *

● قال يزيد الرقاشى :

مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأضرب
بمقارعها ، فقلت لنفسى ماذا تشتهين ؟

قالت : أعود إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، فأنجو به من العذاب الأليم .
ومثلت نفسى فى الجنة أسمى فى رياضها ، وأعانق أبكارها وألبس من
حريرها ، فقلت لنفسى ماذا تشتهين ؟ .

قالت : أعود إلى الدنيا فأعمل صالحاً فأزداد به من النعيم .
فقلت لنفسى ها أنت فى الأمنية فاعملى لما تريدين .
عباد الله نحن فى الأمنية فيها نتوب ، ونندم ونعود .
هذا آخر ما وصلنا إليه فى التوبة النصوح ..
وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .
والحمد لله الذى بنعمته تتم
الصالحات

* * *

المراجع

القرآن الكريم

- ١ - احياء علوم الدين - للغزالي - طبعة المكتب الثقافي - مصر
- ٢ - تفسير القرطبي - طبعة دار الشعب - مصر
- ٣ - التبصرة - لابن الجوزي - مؤسسة جمال - بيروت
- ٤ - الذريعة - الأصفهاني - دار الوفاء - المنصورة
- ٥ - رياض الصالحين - النووي - مكتبة القدسي - مصر
- ٦ - لطائف المعارف - ابن رجب -
- ٧ - من اخلاق السلف - احمد فريد - البصرة - الاسكندرية
- ٨ - مفتاح دار السعادة - ابن القيم - مكتبة المتنبى - مصر
- ٩ - المدهش - لابن الجوزي - دار مروان
- ١٠ - مدارج السالكين - ابن القيم - دار الحديث - مصر
- ١١ - مختصر منهاج القاصدين - ابن قدامة - دار بدر - مصر
- ١٢ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن - عبد الباقي - دار الحديث - مصر
- ١٣ - منهج الطالبين - الرستاقى - الحلبي - مصر

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	● مقدمة
٨	— بين يدى الكتاب « آيات التوبة فى القرآن »
٩	— التعريف اللغوى للمادة « توب »
١١	● الباب الأول : فى بيان وجوب التوبة وفضلها
١٤	— ما ورد عن السلف الصالح فى بيان وجوب التوبة وفضلها
١٩	● الباب الثانى : بيان التوبة النصوح وشروطها
٢٣	— التوبة (نماذج للتائبين)
٢٧	● الباب الثالث : فوائد التوبة النصوح
٣٣	● الباب الرابع : بيان وقت التوبة
٣٩	● الباب الخامس : فى بيان علامات قبول التوبة او ردها
٤١	— علامات التوبة المردودة
٤٣	— من فوائد النظر الى المعاصى
٤٧	● الباب السادس : بيان أقسام العباد فى التوبة
٥٢	— مؤظة
٥٣	● الباب السابع : من احكام التوبة
٥٣	١ — هل يجوز للمسلم او المسلمة تأخير التوبة
	٢ — هل يجوز أن يتوب العبد توبة عامة للذنوب كلها
	٣ — هل تصح التوبة من ذنب دون آخر
٥١	٤ — هل يشترط فى صحة التوبة أن لا يعود الى الذنب أبداً
	٥ — هل يجوز للعبد أن يقول انما بمنعني من التوبة أنى اعلم من نفسى انى اعود الى الذنب ولا أثبت على التوبة

الموضوع	الصفحة
٦ - كيف يكون حال العبد بعد التوبة	٥٥
٧ - هل يشترط في التوبة من المظلمة في حق الأدمى بغيبة أو بقذف إعلامه	٥٦
٨ - هل يعود التائب الى مرتبته التي كانت قبل المعصية بتوبته ؟	٥٨
٩ - ما هي أنواع التوبة ؟	٥٨
- موعظة	٥٩
● الباب الثامن : بيان الأمور التي تعين على التوبة	٦١
- موعظة	٦١
● المراجع	٦٩

رقم الإيداع : ٧٨٧ / ١٩٨٦

مطابع المختار الاسلامي

سلسلة

من

صفات عباد الرحمن

أعنى المسلم : حرصا منا على إحياء الفضائل والقيم والتي ربما طلست في قلوب البعض أخرجنا هذه السلسلة لإحياء هذه الفضائل التي غرسها الإسلام في نفوس أوليائه فكانوا سادة العالم . وهذه هي سلسلة الرسائل :

- | | |
|---|---------------|
| [١٦] التوكل | [١] التواضع |
| [١٧] الكرامة | [٢] الحياء |
| [١٨] الكرم والسخاء | [٣] المروءة |
| [١٩] الوفاء بالوعد والصدق في العهد | [٤] الزهد |
| [٢٠] الإيثار وحب الخير | [٥] القناعة |
| [٢١] السماحة «العفو والإحسان .. وحسن الخلق» | [٦] التوبة |
| [٢٢] الخوف والرجاء | [٧] العفة |
| [٢٣] الوقار - والسكينة | [٨] المحبة |
| [٢٤] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر | [٩] صلة الرحم |
| [٢٥] الحمد والرضا بالقضاء | [١٠] الورع |
| [٢٦] الإصلاح بين الناس | [١١] التقوى |
| [٢٧] الاستشارة والمشاورة | [١٢] الإخلاص |
| [٢٨] قضاء الحاجات | [١٣] الصبر |
| [٢٩] طيب الكلام | [١٤] الحلم |
| [٣٠] المسابقة إلى الخيرات | [١٥] حفظ السر |
| [٣١] الشكر | |

4

0348306



0348306

مكتبة المطبعة
بطنطا
٣٣١٥٨٧-٥
طباعة، نشر، توزيع

١٥٠